الدرس السابع عشر/ تجريد التوحيد المفيد للمقريزي

الشيخ –حفظه الله–: إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد فعلى ما عوَّدنا المؤلف المقريزي –رحمه الله– ينتقي مباحث كليَّة مهمة، لها آثار على أحوال الإنسان في تألهه وعبادته لربه سبحانه وتعالى، فبعد أن تكلم عن أي الأعمال أفضل عند الله عز وجل، وذكر أربعة مذاهب، ثم نصر الأخير منها، وفرغنا من ذلك، تكلم على مسألة مهمة، وهذه المسألة لو أردنا البسط فيها والكلام المطول عنها، لقلتُ: تحتاج إلى سنة وزيادة، ولذا سآتي على ما يسر الله عز وجل من أصول مهمة حول هذه المسألة، وهي مسألة «الحكمة والمنفعة في العبادة».

الله جل في علاه لما شرع العبادات بيَّنَ أنَّ هنالك حِكمًا ومنافع في هذه العبادات، وعلى عادة المقريزي –رحمه الله– ذكر أربعة مناهج، وزيف ثلاثة منها، ونصر المذهب الأخير، ومن عادة المقريزي في عرضه لمادته أنه يؤخر الصواب للآخر، يؤجل الصواب للآخر، ويذكر قبل أن يذكر الصواب، يأتي بالكلام الباطل، وهذا نهج القرآن، وأنت إذا احتجت إلى مناظرة لمبطل، فلا تبدأ أنت بالمناظرة، ليبدأ هو بالمناظرة، كما فعل السحرة مع موسى: {قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ* قَالَ بَلْ أَلْقُوا}؛ فاستنبط ابن القيم في كتاب «الفروسيَّة»، أن عند المناظرات المبطل هو الذي يبدأ؛ لأن المحق إذا بدأ يقرر الحق لعل الخصم يأخذ جزئية ليست في البال ولا في الحسبان، ويجعل الكلام يدور حولها، يجر المبطل المحق إلى شيء هو لا يريده، لكن لما يؤخر صاحب الحق حقه، فلما يظهر الحق يذهب الباطل، واستنبط بعض أهل العلم ذلك

من قوله: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ}؛ إذًا من الذي يبدأ؟ {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ}، إذًا من الذي يسبق؟ الباطل، في النقاش يسبق الباطل، فهذا نهج المقريزي –رحمه الله تعالى– يعرض الأقوال، ويبدأ بأشنعها وأبشعها، والبعيدة عن الأدلة كلها، وإن وجد لها دليلا، فإنما هذا الدليل على جزئية منها، وليس هو نصرة لكل ما جاء فيها، ثم يخلص الحق في النقاش، ويكتفي به، ثم يذكر القول الجامع المانع.

الآن يتحدث عن الحكمة من العبادة والغاية التي شرعها الله عز وجل لها، فالله أقام الخلق كله بالحق، وقال عز وجل:{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}، فالكون كله قائم على الحق:{وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ}، وبين الله لنا أنه خلق الخلق من أجل أن يُوحَّد، أو أن يُعبَد، كما قال الله عز وجل في سورة الذاريات:{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، لو قرأنا أقوال السلف من الصحابة والتابعين عند:{إلا ليعبدون} قالوا: إلا ليوحدون، والصلاة والزكاة وأركان الاسلام والأعمال الصالحات، هي جزء من العبادة، هي حق من حقوق التوحيد، فالله خلق الخلق كله من أجل أنْ يوحِّدوه، وهذا التوحيد كله –كما قال بعض التابعين–: مفتاح، والمفتاح لا يفتح إلا بأسنان فـ«لا اله إلا الله» مفتاح، فأسنان المفتاح إنما هي الطاعات والعبادات، فنحن نصلي لأننا نوحده، ونزكي لأننا نوحده، نطوف بالبيت؛ لأننا نوحده، فهذا التوحيد له ضريبة وله عمل، يستلزم عملا؛ فجميع الأعمال هي جزء من توحيدنا لربنا عز وجل.

وبالجملة هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة مع تفصيل يأتي في حينه بإذن الله تعالى، فالعبادة لها منفعة، ومنفعتها تعود إلى العامل، ولا تعود إلى الله عز وجل، فالله لا يضره معصية العاصي،

ولا ينتفع بطاعة الطائع، فالنفع والضر إنما هو للمكلفين من عباد الله سبحانه وتعالى، وعبادة تعالى هي غاية المنفعة وغاية المصلحة وغاية السعادة، فأعظم نعمة لله على عباده أنه أذن أن يعرفه الناس، وأذن أن يألهوه، وأرسل له رسلا، وأنزل كُتبًا حتى يعلمهم كيف يعبدوه، وكيف يتلذذ بين يديه بالمناجاة والطاعة، فليست العلاقة كما تقول بعض الفرق الضالة بين الله وبين عبده (أن الله يأمر والعبد ينفذ فقط، وأن هذه العبادة ليس فيها نفعٌ، وهي مجردة عن كل نفع)!! هذا أشبه بالهذيان، وكله باطل، وسيأتي عواره بعد قليل، فالعباد يعبدون الله عز وجل ويزكون أنفسهم بعبادته كما قال الله عز وجل: {وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ}، فنحن نتزكى في طاعتنا لربنا، ونعمل على تزكية أنفسنا، هنالك مذاهب أخرى وهذه المذاهب الأخرى المشكلة فيها أنها قائمة على أصول عقدية فاسدة، فحتى تعرف بطلانها لابد أن تكشف الأتربة عن الجلود، وأن يظهر لك بوضوح، أن هذا باطل، بعض الأقوال في موضوع منفعة العبادة والحكمة في منفعتها، إنما هي مبنية على أصول باطلة، تخالف الكتاب والسنة، فنقرأ الآن كلام المقريزي في منفعة العبادة والحكمة منها، وذكر أربعة أصناف، نقرأ صنفا صنفا، بعد ذلك نبينه ونوضحه ونحاول جاهدين أن نكشف عن الأصول الباطلة المبنية على سبب هذا الاختيار.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله تعالى–: «**واعلم أن للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرقا أربعةً، وهم في ذلك أربعة أصناف:**

الصنف الأول: نفاة الحكم والتعليل، الذين يردّون الأمر إلى نفس المشيئة، وصرف الإرادة. فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلاّ لمجرّد الأمر، من غير أن يكون سببا لسعادة في معاش ولا معاد، ولا سببا لنجاة، وإنما القيام بها لمجرّد الأمر ومحض المشيئة، كما قالوا في الخلق: لم يخلق

لغايةٍ ولا لعلّةٍ هي المقصودة به، ولا لحكمةٍ تعود إليه منه، وليس في المخلوقات أسباب تكون مقتضيات لمسبباتها، وليس في النّار سبب للإحراق، ولا في الماء قوّة الإغراق ولا التّبريد».

الشيخ –حفظه الله–: هؤلاء هم الجبرية، وهؤلاء يعتقدون أن العبادة ليس لها حكمة، وإنما المكلف يفعلها لأن الله أمر بها، فالله جل في علاه هو الذي أمرنا بهذه العبادة، فنحن نفعلها لمجرد الأمر المحض دون أي شيء سواه، وقالوا قولا أشبه ما يكون بالهذيان وقرروا باطلا وقبحا، قالوا: علاقة العابد بالرب أن الله أمر، والعبد ينفذ، والله يفعل ما يشاء ولا صلة للعبادة بالنجاة، وليس الأمر كله في العبادة وغيرها قائمًا على الأسباب والمسببات، فالله جل في علاه قد يعذب الطائع، وقد يكرم العاصي، قد يهين الرسل، وقد يكرم الكفار، فالأمر هو أن العلاقة بيننا وبين الله عز وجل أنه آمر، ونحن نتلقى وكل ما يخص ربط الأسباب بالمسببات، وربط الحِكَم بالطاعات، والمنافع بالعبادات، سواء في الدنيا أو في الآخرة ليس له مكانة في قولهم.

فهؤلاء الذين يعتقدون أن الله عز وجل أجبر الخلق على الطاعات، وأن الخلق ليس لهم إرادة ألبتة، ولله عز وجل على أوجد العبد مسلوبا من حيث إرادته، فليس له إرادة، فالصنف الأول النفاة للحكم والتعليل، الذين يردون الأمر إلى نفس المشيئة، هؤلاء لا يفرقون بين إرادة الله في كونه ومشيئته في شرعه، عندهم الأمر واحد، وبينا فساد هذا القول بأدلة كثيرة، في درس مضى، وينبغي أن نبقى متذكرين ما نقول، فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا بمجرد الأمر، نقوم بالعبادات لا لراحة ولا لثواب ولا لعقاب، وإنما نقوم بالعبادة لأن الله عز وجل أمر بها، قال: من غير أن يكون سببا لسعادة في معاش، ولا معاد، فالعبادة ليست سببا للسعادة ولا للارتقاء ولا للقرب من الله عز وجل، وعليه؛ يقولون بالعكس أيضا، فيقولون: كالكفر ليس سببا للشقاء، ونحن نعمل العبادة

نمتثل للعبادة؛ لأن الله فقط أمر، ونحن نمتثل، والله لو أمرنا بالكفر لكفرنا، وهل يمكن أن يأمر الله بالكفر؟ ممكن. لماذا صاروا يقولون إنه ممكن؟ لأنهم ينفون الحِكم، ينفون العلل، ولا يربطون بين الأسباب والمسببات، فنفاة الحكم ونفاة التعليل، يمكن عندهم أن يختار الله النبي رجلًا دَعِيًّا، وهذا –والعياذ بالله– كلام كفر مركب بعضه على بعض، قال: «من غير أن يكون سببا لسعادة في معاش ولا معاد ولا سببا للنجاح، وإنما القيام بها لمجرد الأمر، الله أمر وأنت تنفذ، وليس لك أن تسأل، قال: لمجرد الأمر ومحض المشيئة، كما قالوا في الخلق، الخلق أفعال الله عز وجل قالوا: لم يخلق الله عز وجل شيئا من مخلوقاته لغاية ولا لعلة هي المقصودة به ولا لحكمة تعود منه!! قلنا: شعار هؤلاء أن ينفون الحكم، وينفون التعليل، «وليس في المخلوقات أسباب تكون مقتضياتها لمسبباتها»، وهذا كاشف لرداءة مذهبهم، لا يقولون: بالأسباب والحكم، لكن الإنسان عندما يجوع يأكل، فلماذا يأكل الإنسان؟ حتى يشبع، طيب؛ الماء سبب يُغرِق، فلماذا الغرق من سمات الماء؟ قالوا: الغرق ليس من سمات الماء. والنار تحرق، قالوا: الحَرْق ليس سببا للإحراق!! هذا جنون وهذيان، عندما نسألهم: فماذا تقولون؟ يقولون: الله يخلق الشبع عند أكلك، وليس الشبع سببا لأكلك، الله يحرق النار بالنار، ويخلق بإرادته، ولا يفرقون كما قلنا، بين إرادة الله عز وجل في كونه، وبين مشيئته في عبادته، فالله جل في علاه يخلق الحرق عندما تقوم النار والنار ليست سببا لذلك، وهكذا سائر الأشياء فقولهم هذا ألجأهم إلى نفي خواص الأشياء، من مثل الإحراق في النار، ومثل القطع بالنسبة للسيف، ومثل الشبع عند الأكل، ومثل الإغراق في الماء، لكن ما الذي ألجأهم إلى هذا؟ ألجأهم لهذا أصول، وهذه الأصول ليست سديدة ولا صحيحة، وتحتاج إلى معارض، قالوا: إذا قلنا بتأثير الأشياء والأسباب والمسببات، ففي هذا القول شناعة وبشاعة! ما هي الشناعة والبشاعة في هذا؟ قالوا: إن هنالك شيئًا يشارك الله تعالى في التأثير في هذا

الكون، فهناك أشياء تخالف، من الذي يؤثر في الكون؟ مشيئة الله، فالله خلق الأشياء وربط بها الأسباب والمسببات.

الإمام ابن القيم أقام كتابه «شفاء العليل» في معالجة هذه المسألة، وذكر نحو ألف دليل؛ ليظهر عوار هذا الكلام، وهذا الكلام يلتقي في بعض الأحايين مع تقريرات غير أهل السنة في موضوع الأسماء والصفات، وسيتضح هذا فيما بعد، ويلتقي مع مسألة مهمة جدًّا، وهي التحسين والتقبيح، فهل التحسين والتقبيح يعود للعقل، أم للشرع؟ فمنهم من قال: العقل هو الذي يحسن، ويوجب على الله!

وهذه قلة أدب من المعتزلة، وما أقل أدب المعتزلة مع الله، فهؤلاء القوم من المعتزلة وهم أصحاب القول الثاني نقيض هذا القول، كلهم ليسوا مؤدبين مع الله عز وجل.

طيب، هؤلاء يقولون التحسين والتقبيح لمن؟ هؤلاء الذين ينفون الحكم وتعليل خلق الله عز وجل، ما هو الحسن عندهم؟ الحسن عندهم ما ورد في العقل، قول آخر: الحسن عندهم والقبيح عندهم ما ورد في الشرع، والصواب: الشرع يحكم بالحسن والقبح، والعقل كاشف عن الحسن والقبح، فليس هناك تعارض بين الشرع وبين العقل، الحكم لمن؟ للشرع، هل العقل يستطيع أن يعلل وأن يقنع، وأن يكشف عن القبح والحسن؟ نعم، ولا تعارض بين حكم الشرع في التحسين والتقبيح وبين أن يجري العقل ويركض في بيان أسباب القبح أو الحسن. واضح الكلام؟ فهؤلاء يرون أن العبادة ليس فيها علل وليس فيها حكم، وإنما أن تتلقى الأمر من الله عز وجل، طبعا زعمهم بأن قولنا: بالتأثير عندما نربط الأسباب بالمسببات، أن هذا ليس بصحيح، لأن الذي يوجد في الكون ليس هو السبب وليس هو الشيء الوحيد لحصول الشيء، فهناك أشياء أخرى،

فحصول الشيء بالسبب والمسبب لابد له من أشياء، ومن أهمها زوال الموانع، يعني: النار للإحراق، فإذا أشعلنا النار في الماء، لا يحدث إشعال، لماذا؟ لأن هناك مانعًا، فالقول بأن الأسباب تصبح هي المؤثر في الخلق و تصبح هي شركًا مع الله وأنهم يريدون أن ينزهوا أنفسهم من الشرك بالله عز وجل، وأنه لا يوجد تأثير في هذا الكون لغير الله**!!** فهو قول باطل، فلابد من تقسيم: أسباب، تأثير السبب، المسبب، ثم زوال الموانع، ثم أولًا وأخيرا في هذا كله لابد من مشيئة الله سبحانه وتعالى.

الله متى شاء يجعل النار لا تحرق، كما فعل مع إبراهيم، فالأمر كله عائد إلى إرادة الله سبحانه وتعالى، وليس كما قالوا بأن الأمر إن أثبتنا موضوع تأثير وربط الأسباب والمسببات نكون قد حكمنا بأن هنالك في الكون مؤثرا غير الله**!** هذا كلام باطل، وليس بكلام صحيح والتفصيل الطويل عند الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى.

ففساد هذا القول واضح لكل ذي عينين.

نكمل أيضا في أوجه فساد هذا القول، والتنبيه على بعض الأسباب التي جعلتهم يقولون به.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله– «**وهكذا الأمر عندهم سواء، لا فرق بين الخلق والأمر، ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا، من غير أن يقوم بالمأمور صفةٌ تقتضي حسنه، ولا بالمنهي عنه صفةٌ تقتضي قبحه**».

الشيخ –حفظه الله–: إذا الأمر في الشرع بالتحسين والتقبيح وليس هناك أسباب ولا تعليل ولا عقل ولا شيء، والله أمر ونحن نتقبل، الحسن حسن، والسيئ سيئ، والله عز وجل قد يأمر

بالكفر، وقد ينهى عن الإيمان، قد يأمر بترك الصلاة، قد ينهى عن الصلاة. هذا القول الذي نقوله له آثار ما زالت، يقول : «وهكذا الأمر عندهم سواء، لا فرق بين الخلق والأمر» يريد لا فرق بين التكوين وهو الخلق، ولا بين الأمر وهو الشرع: {ألا له الخلق والأمر} فالخلق خلقه والأمر أمره، لذا لا يُصلِح خلقه إلا أمره سبحانه وتعالى، فالخلق خلقه هو الذي خلقهم هو الذي يعرف الأسرار ما يجري للإنسان، يعني اليوم الآلات كلما كانت دقيقة لا يقدر على معالجتها إلا صانعها أو من يعرف صنعها كلما كانت دقيقة.

فمن خلقك إلا الله سبحانه وتعالى؟!

هم لا يفرقون بين الخلق والأمر، ولذا قلت: لا يفرقون بين المشيئة الشرعية وبين الإرادة الكونية، والأمور كلها عندهم سواء، هكذا الأمر عندهم سواء، لا فرق بين الخلق وهو التكوين والأمر هو الشرع، ولا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور ، هو الأمر إليه له أن يأمر بالمحظور، وله أن ينهى عن المأمور، الأمر إليه، قالوا: ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عنها، هكذا تلقينا الأمر عن الله، فنحن لا نعلل الحكم، ولا نعلل الطاعات ولا نعلل العبادات، انتبه الآن قال: «من غير أن يقوم بالمأمور صفة تقتضي حسنه» عقلك لا يعرف المعروف، لا يعرف الحسن من القبح، والأمر لمن في الحسن والقبح؟ لله.

قال: لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، جائز عندهم على هذا القول أن الله يأمر بالكفر، وأن يأمر بالزنا، فالمأمور هو مجرد تلقي الأمر ليس لشيء في نفسه، والمحظور ليس لشيء في نفسه، وإنما هو محض المشيئة فالله حكم بهذا أنه ممنوع وهذا مشروع ونحن مجبرون!!

هذا خطأ عن أصل فاسد، وهو قول الجبرية، وهو أنه لا إرادة لنا، وإنما نحن كالريشة لا إرادة لنا، نحن نتلقى الأمر عن الله عز وجل.

فهؤلاء يقولون بالتحسين والتقبيح من جهة السمع فقط، وهذا من أبطل الباطل وأهل السنة على خلاف هذا القول، وسيأتي لاحقا توضيحه.

نسمع أيضا وننتبه إلى بعض المحظورات في هذا القول:

قال المصنف رحمه الله: «ولهذا الأصل لوازمٌ فاسدةٌ، وفروعٌ كثيرةٌ».

لو سألنا هؤلاء: ما هو الظلم؟ نحن نعرف الظلم بأنه: وضع الشيء في غير مكانه الصحيح.

هم يقولون الظلم التصرف في ملك الغير، ليس الظلم أن تضع الشيء في غير المكان الصحيح.

إذا قلت: وضع الشيء في غير مكانه، رجعت في التعليل على قولهم، تعلل السبب أن تعرف الشيء أين يوضع، فالظلم أن تضع هذا الشيء في محله ومكانه.

هؤلاء قالوا: ليس أن تضع شيئا في غير مكانه، وإنما قالوا: الظلم أن تتصرف في ملك الغير، ولا يمكن لأحد أن يتصرف في ملك الله، وهذا من أبطل الباطل قطعا، ومن أشد عوار آثار هذا المذهب موضوع التحسين والتقبيح، وموضوع أن الإنسان مسلوب الإرادة، ليس له إرادة إلا أن يتلقى أمر الله، وهؤلاء إن عبدوا الله جل في علاه لا يظهر عليهم خشوع، ولا خضوع لأمر الله سبحانه وتعالى، ولا يجدون في قلوبهم لذة في المناجاة، لا يجدون هذا كله، أسأل الله سبحانه وتعالى العفو والعافية.

نسمع تتمة الكلام.

قراءة الطالب: قال المصنف رحمه الله: «**وهؤلاء غالبهم لا يجدون حلاوة العبادة ولا لذّتها، ولا يتنعّمون بها، ولهذا يسمّون الصّلاة والصّيام والزّكاة والحجّ والتّوحيد والإخلاص ونحو ذلك تكاليف، أي: كلّفوا بها، ولو سمّى مدّعي محبّة ملك الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفًا لم يعد محبا له**».

الشيخ –حفظه الله–: هؤلاء يرون العبادات التي أوجبها الله تعالى هي تكاليف محضة، فنحن نصلي ونصوم ونزكي ونقوم بهذه التكاليف، وهذه التكاليف ليس لعقولنا مدخل فيها، ولا فهمًا لها، فالله جل في علاه أراد تكليفنا، وأراد المشقة علينا! فهم يؤدونها ولا يجدون لذةً ولا راحةً ولا سعادةً في مناجاة الله سبحانه وتعالى، وقالوا: (لا فرق عندنا لو أن الله أمر بالكفر أو الفسق، فأثر الفسق علينا، وأمر الله بها لأن ذلك ممكن على حسب الشرع) في فهمهم!! وهذا هذيان ومن أبطل الباطل، (فآثار فعلنا للمعاصي امتثالا كآثار فعلنا للطاعات امتثالا)!!

وهذه ثمرة مذكورة بكثرة في كتب الأصول في موضوع تسمية العبادات تكاليف، لشيخ الاسلام في أوائل الفتاوى الجزء الأول صفحة خمسة وعشرين ستة وعشرين كلام يعالج هذه الحيثية، وهذه الحيثية إنما هي نابعة من أصل فاسد.

نسمع العلاج حتى يظهر لنا بطلان هذا القول بطلان موضوع التكاليف، يقول شيخ الإسلام بعد كلام: «لهذا لم يجئ في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة؛ وإنما جاء ذكر التكليف في موضع

النفي؛ كقوله: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}، و{لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ}، و{لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا مَا آتَاهَا} أي وإن وقع في الأمر تكليف؛ فلا يكلف إلا قدر الوسع، لا أنه يسمي جميع الشريعة تكليفا، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب؛ ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه، وذكره وتوجه الوجه إليه، فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه في ذلك أبدا. قال الله تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ * هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} فهذا أصل».

فالله تعالى يقول: {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، هذه الآية هي تفسير قوله تعالى في سورة الضحى: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ}، هل كان النبي ضالا؟ بمعنى أنه كان مشركا عاصيا لله؟! حاشاه -صلى الله عليه وسلم-.

قوله: (فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب)، كما قال الله في سورة الرعد: {أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}.

فقول الجهمية أن العبادات والطاعات محض تكليف لا معنى له ولا فائدة ولا أثر. فهذا قول فاسد وترده الشريعة كلها.

هذا القول ظهر في زمن التابعين، وهو قول الجعد بن درهم (الذي توفي سنة 120)، وأخذه منه الجهم بن صفوان (الذي توفي سنة 128)، فهو قول الجهميين، وسبب هذا القول نفي محبة الله لعباده؛ فأول من نفى محبة الله هو الجهم بن صفوان، وشاركه في نفي المحبة الأشاعرة، {يحبهم

ويحبونه} والأشاعرة تأولوها بالإرادة، ما قالوا كقول الجهمية، قالوا إن المراد بمحبة الله وسخط الله ورضا الله وغضب الله، هو إرادة الخير وإرادة الشر، المحبة هي إرادة الخير، فموضوع هذا القول لموضوع إثبات المحبة وغيرها.

نسمع أول من قال بهذا القول، وكيف عامله الناس في زمن الخير في زمن التابعين:

قراءة الطالب: قال المصنف رحمه الله «**الصنف الثاني: القدريّة النّفاة، الذين يثبتون نوعا من الحكمة والتّعليل لا يقوم بالرّب ولا يرجع إليه، بل يرجع لمحض مصلحة المخلوق ومنفعته، فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانا لما يناله العباد من الثواب والنّعيم، وأنها بمنزلة استيفاء الأجير أجره. قالوا: ولهذا يجعلها سبحانه وتعالى عوضًا، كقوله: {وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ، {هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ، {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ، {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} ، وفي الصحيح: "إنّما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثمّ أوفيكم إيّاها". قالوا: وقد سماها جزاءً وأجرًا وثوابا لأنه شيء يثوب إلى العامل من عمله، أي: يرجع إليه. قالوا: ويدل عليه الموازنة، فلولا تعلّق الثواب بالأعمال عوضًا عليها لم يكن للموازنة معنى**».

الشيخ –حفظه الله–: قال: ولو سمى مدعي محبة ملك من الملوك نعم أو غيره تكليفا على مذهب هؤلاء، لم يعد محبا له، يعني واحد اجتمع مع ملك، فقال له: أمرك كله ليس فيه فائدة، وكل نهيك ما فيه فائدة، هذا الذي يقول للملك أو للوجيه هذا الكلام، هل هو محب له؟ أمرك ما فيه فائدة، هذا محب للملك؟ لا يوجد عاقل يقول هذا محب للملك! وأوامره كلها مجردة عن النفع ومجردة عن الفوائد، ونواهيه كلها مجردة عن اتقاء المضرة والفساد، فنقول لمن يقول للملك

كذلك: محبتك للملك دخيلة وليست بأصيلة مزيفة ليس صحيحة، فأنتم يا من تقولون أن الله جل في علاه في أوامره لا تعود على خلقه بنفع، ونواهيه لا تعود على خلقه بمضرة فعلوها، فأنتم أدعياء الحب وأنتم لا تحبون الله، كما نقول لذاك في حق من قال للملك ذلك، وهم بغير هذه المحبة يفتخرون، فما عندهم محبة أصلا، وهم كالآلة، لأنهم يقولون: نحن جبرية، ليس لنا إرادة، ولا فرق بيننا وبين الدواب، وبيننا وبين الأشياء، وإنما الله يأمر ونحن ننفذ، وعقلنا لا وجود له، ولا يمكن للعقل أن يفهم حسن الشرع وما قبحه الشرع! وهذا من أفسد الفاسد، ربط الأسباب بالمسببات العقل والقلب يتسع بها، طبعا تظهر آثار خفية لا يعرفها إلا من وفقه الله جل في علاه.

شخص أصيب بولده، فمات وكان يحبه وكان شابا صغيرا، أكثر ما يتعلق قلب الأب بالابن، كما تعلق قلب إبراهيم بالذبيح، من الذبيح؟ إسماعيل.

إياكم أن تقولوا إسحاق، إن قلتم إسحاق فهذا يفرح به اليهود في كلام طويل.

تعلق قلب إبراهيم، الله نزع هذا الحب، أمره بالذبح، ولحكمة، ولذا قال: {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}، فهذا الرجل لما مات ولده: ضحك ولم يتأثر، فقال له رجل من تلاميذه: عجبا لك مات ولدك، وولدك أحب الخلق إليك، ولم تتأثر؟!

قال: أرضى بقدر الله، قال: يا هذا، سيد الراضين عن الله محمد -صلى الله عليه وسلم-، لما مات ولده رق قلبه ودمعت عينه، وهو سيد الراضين عن الله عز وجل.

ربط الأسباب بالمسببات ومضادة الفطرة، ومخالفة ما جبل عليه الناس ليس هذا دينا، محمد – صلى الله عليه وسلم– أصيب بولده فبكى، وقال: «وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا»، فربط الأسباب بالمسببات بالمكابرة بعدم وجود صلة بينهما، هذا أمر ليس من شرع الله عز وجل، ولذا بعض الناس فهم الدين فهمًا خطأً.

قال المصنف: وأول من صدرت عنه هذه المقولة الجعد بن درهم.

قلنا: الجعد بن درهم كان آخر عهد بني أمية، وهو أنشأ مذهب الجهمية، وهذا فرق من فروع قبيحة كثيرة لهم، وهذا القبح إنما مرده إلى موضوع الأسماء والصفات، وأنهم لا يثبتون الأسماء والصفات لله، لا يثبتون المحبة، بل لا يثبتون الكلام، ويقولون في قول الله عز وجل: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا} أنتم لا تفهمون ذلك، قال: الكلم الجرح، أن موسى جرح، وقرأوا: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ}! من المتكلم؟ موسى، موسى المتكلم، كلم اللهَ: مفعول به، موسى: فاعل، طيب، إذا موسى كلم الله، لماذا كلام موسى –عليه السلام– واضح، لا يحتاج لتأكيد إذا كان موسى الذي كلم، لسنا بحاجة لقوله: {تكليما}، فلما كان الكلام من الله حتى يؤكد الله لنا أنه يتكلم، فالله أكده بقوله: {تكليما}.

وماذا تقولون في قول الله: {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} إيش تقولون عنها؟ أهل الباطل مفسدون وأهل الباطل لا يحبون جميع ما ورد في كتاب الله وفي سنة رسول الله، أهل الباطل يكرهون بعض النصوص، المعتزلة وجدوا عمرو بن عبيد، وكان شيطانًا، كان ذكيا في المعتزلة، وألف الدارقطني وهو إمام كبير من أئمة السنة جزءا في أخباره، طبع في فرنسا، ثم نقل فطبع في البلاد وجدوا عمر ابن عبيد يحك قوله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}، يحُكُّها.

لذا قال أهل العلم: ما من مبتدع إلا وهو يبغض الأحاديث.

من الذي ينشرح صدره لكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-؟ من كانت أصوله سليمة وسديدة وصحيحة، وبالتالي هذا الجعد بن درهم، كاد أن يموت مذهبه فالذي أحياه الجهم بن صفوان، وتبناه ونسب إليه، وإذا النسبة لهذا المذهب، الجهمية؛ نسبة إلى من أخذ مذهب الجعد، وهو الجهم بن صفوان الذي كان يقول الله لا يتكلم، والله ما اتخذ إبراهيم خليلا، طيب؛ اتخاذ الله إبراهيم خليلا مذكور في القرآن، وفي هذا إثبات محبة الله لبعض خلقه.

أرجو الله أن نكون ممن يحبهم، فيا رب إننا نحبك، فأحبنا يا الله.

ومن لطيف ما ذكر القرطبي في تفسيره، قال: كنت أظن أن العبد إذا أحب الله أحبه الله، إن رضي عن الله رضي الله عنه، قال: حتى قرأت القرآن، فقرأت: {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} و{يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}، فعلمت أن محبة الله للعبد تسبق محبة العبد للرب.

فيا ربنا إننا نحبك، فنرجو الله أن نكون ممن تحبهم، وأن تحشرنا مع من تحب يا ربنا.

فهؤلاء ينفون المحبة بالكلية وينفون اتخاذ الله عز وجل إبراهيم خليلا.

فمن الذي قتل جهم بن صفوان؟ الأمير المعروف خالد بن عبد الله القسري كان أميرًا من أمراء بني أمية، فقلَّب النظر وشاور أهل العلم، وأهل العلم في زمن بني أمية كبارُ التابعين فأشاروا عليه بقتله، فخالد حبس الجهم، ثم خطب، وكان قديما الذي يخطب الأمراء، فخطب في الناس في العيد، ثم قال في خطبة العيد: أيها الناس ارجعوا فضحوا تقبل الله منا ومنكم، فإني مضح بالجعد ابن درهم، ذلك أنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، ثم نزل فذبحه

تحت المنبر بحضور العلماء والأئمة، وشكره أهل العلم على صنيعه هذا، ولذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في نونيته:

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد
القسري يوم ذبائح القربان
إذ قال إبراهيم ليس خليله
كلا ولا موسى الكليم الداني
شكر الضحية كل صاحب سنة
لله درك من أخي قربان

فضحى بهؤلاء.

فكان أول فساد دخل على معتقد أهل السنة وكان خطيرا إنما هو فساد الجهمية الذين عطلوا الصفات، وبقي بهذا الباطل بقي أثرٌ.

موضوع المحبة وإثبات محبة الله جل في علاه الذي ينسف هذا القول، مذكور في كثير من المصنفات والعلماء، ووقع فيه كما قلت بعض الأشاعرة، ونقل ذلك الإمام النووي عن القاضي عياض في أن موضوع المحبة إنما هو إرادة الخير، والبغض إنما هو إرادة الشر، وليس الأمر كذلك.

الكلام في هذا طويل فصلته بينته في كتاب: "ردود وتعقبات".

ومما قال شيخ الإسلام «فإن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين: أثبتت محبة الله لعباده المؤمنين ومحبتهم له كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} وقوله: {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} وقوله: {أَحَبَّ

إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ } وقوله: { فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} {يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} {يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}. وقال النبي –صلى الله عليه وسلم– في الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»، وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام».

لما نقول: المحبة إرادة الخير، كيف هذا يستقيم مع قول النبي –صلى الله عليه وسلم– الثابت في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال –صلى الله عليه وسلم–: «إن الله عز وجل إذا أحب عبدًا، قال لجبريل: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيقول جبريل لأهل السماء: إن ربكم عز وجل يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض»، ما معنى محبة الله إذا كانت إرادة الخير؟ والله يأمر الملائكة أن تنادي، هل هكذا إرادة الخير؟!

إرادة الخير ثمرة من ثمار المحبة، وليست هي المحبة، الله إن أحب عبدا، فمن آثار هذه المحبة أنه يحب الخير، وأنه يقبل على الخير، فإرادة الخير إنما هي في حقيقتها أثر من آثار محبة الله سبحانه وتعالى، فلله محبة، ولمحبته آثار، وهذه الآثار مذكورة عند أهل العلم بالتوثيق، وبعض الخلق من شدة عبادته لربه محفوف بالخير، والله يحميه من المعاصي، وبعض الخلق من شدة معاصيه، لا ينشرح صدره لطاعة الله، فالعبادة والطاعة لها لذة ولها أسباب.

وخلاصة ما نقول في نفاة المحبة: هذا مذهب رديء، وأصحابه يقررون الهذيان، ومن أبطل الباطل، وهذا المذهب وهو مذهب نفي التعليل والحكم، مذهب يخالف كتاب الله ويخالف سنة

رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقائم على أصل الباطل، وهذا الأصل إنما هو عدم إثبات محبة الله جل في علاه، ويخالف ما ورد في كتاب ربنا وسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم- وما أجمع عليه سلف أمتنا.

تبقى أقوال ثلاثة.

قالوا في المثل: فرق تسد.

أهو مثلٌ باطل أم صواب؟ الجواب: فيه تفصيل، فتفريق القلوب باطل، وهذا مثل بريطاني، تفريق الواجبات، والتأني في إثبات الواجبات، هذا أمر حسن.

حتى لا تتداخل المسائل، فإن شاء الله تعالى في درسنا القادم نأتي للقول الثاني، وهو أيضا باطل، والقول الثالث باطل، القول الثاني عكس الأول، الأول قالوا إننا مجبرون، وهو مذهب الجبرية، والثاني مذهب المعتزلة: يرون إرادة العبد تخلق كل شيء، وليس لله شأن بإرادتنا، فخرج معهم قول مبني على هذا الأصل، فالمبني على الفاسد فاسد .

القول الثالث: قال به من زعم أنهم أصحاب القلوب المشتغلون بالرقائق، قالوا القول الثالث قالوا: نحن نعبد الله لأجل أن نروض نفوسنا ونهذبها، نحن نعبد الله لأننا نحبه، لا نريد جنة ولا نريد نارًا، هذا قول ثالث، هذا قول يردده بعض الناس الآن، وهذا أيضا فاسد.

القول الرابع: الذين ربطوا بين الأسباب والمسببات بين الحكم والغايات، واتسعت قلوبهم؛ لأن الشرع هو الذي يقضي بالحسن والقبح، وأن العقل إن كشف عما حكم به الشرع يجده سديدًا صوابًا قائمًا، وليس فيه علة ولا خلل.

وهناك أصل أيضا بعيد، لكنه يجمع هذا الأمر: تعارض النقل مع العقل، هل الحكم للعقل أم الحكم للشرع؟ مسألة دوخت الناس، وشيخ الإسلام ابن تيمية لما ذهب إلى مصر وأخوه وسجن، لو لم يخرج شيخ الإسلام إلا بهذا الكتاب لكفاه، فألف إحدى عشر مجلدا «درء تعارض العقل والنقل»، وقرر أن النقل الصريح مع العقل الصحيح لا يفترقان، وإذا وقعت أشياء مشبهة، النجاة في الشرع، فالنقل مقدم على العقل. هذا أيضا أول فرع من فروع هذه المسألة، وهو بديع يعني تقرأ القرآن، واستنبط أشياء جميلة جدا، ومن أجمل ما رأيته في حسن الاستنباط، في الدلالة على ما وصل إليه، قول نوح مع ولده، لما قال له: اركب معنا. قال: لا، سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، سأرتفع في الجبل، فشيخ الإسلام قال: قول نوح لولده: اركب معنا نقل، وقول ولد نوح لأبيه: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء عقل، فعقل ونقل تعارضا، فالنجاة في النقل وليست النجاة في العقل. فاذا وقعت في ورطة وشبهة، وعقلك يقضي بشيء وربك يقضي بشيء؛ فاتهم عقلك.

عمر استفاد من صلح الحديبية، قال: «اتهموا الرأي، لقد كدنا أن نرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم» عمر الذي هو ناصر للحق، في شروط صلح الحديبية: إذا جاءك واحد من المشركين ترده علينا، وإن جاءكم واحدًا من المؤمنين لا نرده، قَبِلَ النبي صلى الله عليه وسلم، لأننا ما نخاف من صاحب الإيمان، من آمن ما نخاف عليه. يعني الكلام نظري، ليس واقعًا، فلما قبلت أثارت هذه النقطة عمر، قالوا: يا رسول الله، لم نعطي الدنية من ديننا أليسوا هم على الباطل، ونحن على الحق؟ فكان عمر يقول بعد هذه الحادثة: (اتهموا الرأي لقد كدنا أن نرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم)، يعني عقولنا زينت لنا أشياء، تبين لنا أننا مخطئون، وأن النبي –

صلى الله عليه وسلم- فتح مكة بسبب صلح الحديبية، وهو فعل عجيب، تدبير سياسي خطير وعميق ومهم، وكان سببا رئيسا لفتح مكة.

اقرأوا أقوال السلف في تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير وتفسير البغوي، في قول الله عز وجل: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحا مُّبِينا}، تقرأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحا مُّبِينا}، صلح الحديبية، فتح مكة النبي -صلى الله عليه وسلم- أشد الغزوات التي مرت به في العام الخامس الأحزاب، اجتمع عليه الكفار من كل حدب وصوب، اجتمع عليه اليهود في الشمال، كفار مكة في الجنوب والمنافقين في الداخل، وأشار سلمان بحفر الخندق، ونجى الله عز وجل المؤمنين بحفر الخندق، وهذا يبين بطلان نفاة التعليل والحكم، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يأخذ بالأسباب.

ثم لما فك الله تعالى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- غزوة الأحزاب فكر ماذا يفعل أمام المنافقين، لن يكون أن منافقا يتقيد بصلح، فهم يتلونون، ولن يكون أن يهوديا يتقيد بصلح، ونتحدى إلى يوم الدين، أن نجد حادثة واحدة مرت مع يهودي في صلح، واليهودي تقيد بالصلح.

ثم فكر النبي -صلى الله عليه وسلم- في العرب، العرب يتصفون بالصدق، والعربي إذا قال يصدق، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه أن يعتمروا، وذهب معهم بنفسه ووصلوا الحديبية، الحديبية قسم حل وقسم حرم، وصلوا لقسم الحرم، يعني ما بقي طويل مسافة، وصلوا مكة، يعني كانوا في قسم الحرم في مكة، فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يسوقوا الهدي، وسوق الهدي للعمرة، وهذه سنة مهجورة، من السنة للمعتمر إن كان مليئا ذا مقدرة، متى تحلل من العمرة يذبح، قل من يذبح، عبدالله بن عمر لما كان يتحلل كان يذبح.

ساق الهدي، سوق الهدي إشارة لكفار قريش، جئنا معتمرين، والإعلام تعبئة في الرأي العام من قبائل العرب جئنا معتمرين، العربي عنده كبر بدون الدين، يهذبه الشرع.

فصار أمامهم ثلاث احتمالات: الأمر الأول لا نريدكم أن تدخلوا بيت الله، وهذا أمر لا يقدر عليه الكفار أنه يجاهروا به، واحد جاء يعظم بيت الله، والكفار قائمون على البيت، يقول: لا تعظم بيت الله!! لا يقدرون على أن يفعلوا ذلك.

الاحتمال الآخر: أن يمكنوا النبي وأصحابه من الطواف والعمرة، وهذا يخالف عنجهية العرب.

الأمر الثالث: الصلح، فخرج النبي وبين عينيه يريد الصلح، مجرد أن عقد الصلح أمن جهة الجنوب، فلم يبقَ له إلا اليهود، فبدأ يجلي اليهود، فتمكن بسبب هذا الصلح، واستطاع بسببه أن يعود إلى مكة فاتحًا، فنزلت في العام التاسع سورة براءة، وسورة البراءة من الكفار ووعودهم إلى آخره.

فالشاهد من إيراد الكلام أن هذا المذهب الذي عرضه نفاة الحكم والعلل، مذهب باطل يخالف الفطر، ويخالف للعقل، ويخالف الشرع، وهو مبني على عدم إثبات المحبة لله سبحانه وتعالى.

وفي درس قادم نتكلم أن شاء الله تعالى عن المذهب الثاني.

هذا والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.